البعثة النبوية

دراسة موجزة حول البعثة النبوية ودورها في بناء وإدارة المجتمع الإنساني

العلامة الشيخ
الدكتور عبد الهادي الفضلي

منشورات بيت الحكمة الثقافي

البعثة النبوية

الدكتور عبد الهادي الفضلي

البعثة النبوية

دراسة موجزة حول البعثة النبوية ودورها في بناء وإدارة
المجتمع الإنساني

الدكتور عبد الهادي الفضلي

منشورات بيت الحكمة الثقافي

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

بإشراف لجنة مؤلّفات العلامة الفضلي

منشورات بيت الحكمة الثقافي

القطيف ـ المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

ظاهرة النبوة من الظواهر الدينية التي تكفّل الدرس الكلامي بدراستها وبحثها ضمن ما يعرف بأصول الدين التي لا بدَّ للمسلم الإيمان بها وتصديقها، حيث تمثّل الأساس الفكري والنظري للعقيدة الإسلامية.

وهي من الظواهر التي تناولها مؤلّفنا القدير العلاّمة الفضلي في أكثر من مناسبة، وكان له نظرته الخاصّة في المنهجية الصحيحة في دراسة أصل النبوة، هي ما يُطلِق عليه المنهجَ التكامليّ[1]. ذلك أن النبوة ـ وخلافًا لأصلَي التوحيد والمعاد ـ بجانب ما لها من طبيعة غيبية تتمثّل في كنه وحقيقة علاقة النبي بالخالق جلّ وعلا، وبخاصّة ما يرتبط بظاهرتي الوحي والمعجزة الإلهيين، لها بعدها الحضوري المتمثّل في حركة النبي التاريخية وتواجده بصورة حيّة بين الناس. وهي حركة يمكن دراستها

(١) انظر: خلاصة علم الكلام، الدكتور عبد الهادي الفضلي، مركز الغدير ـ بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، ص ٤١.

من خلال تتبّع أحداثها واستنتاج العديد من الدروس والعِبَر منها.

ولعلّ المصدر الأساس في دراسة ظاهرة النبوة هو النصّ القرآني، وذلك لما نعتقده فيه نحن المسلمين من وثاقة تاريخية عُليا لا يعطيها المسلمون لأيّ نصٍّ تاريخي آخر، وكذلك لاشتماله على القصص النبوية التي يمكن للدارس أن يخرج منها بمبادئ وأسس تفصيلية حول الرسالات الإلهية، يمكنها أن تمثّل منطلقات جديدة لإعادة النظر حول بعض القضايا الخاصّة بأصل النبوة في الدرس الكلامي.

وهي منهجية اتبعها العلاّمة الفضلي في محاضرته التي ألقاها تحت عنوان: «بعثة الأنبياء عليهم السلام ووظائفهم»، وذلك في العمران إحدى بلدات الأحساء شرق السعودية بمناسبة المبعث النبوي الشريف[١]. حيث استهدى في حديثه عن البعثة النبوية بالهدي القرآني الكريم، جامعًا في ذلك بين معطيات الدرس الكلامي ومناهج المفسرين في تناولهم لظاهرة النبوة وطبيعة حركتها التاريخيّة.

وقد ارتأينا ـ في «**لجنة مؤلفات العلامة الفضلي**»[٢] ـ تحريرها بما يتلاءم ونمط الكتابة، إذ اقتضى ذلك تغييرًا وتصرُّفًا في بعض التعبيرات ووضع العناوين الرئيسة والفرعية وبعض الهوامش، لإعدادها ونشرها في كتاب مستقل. آملين أن تعمّ بها الفائدة، وأن يكتبها سبحانه في ميزان

(١) لم نستطع معرفة سنة إلقاء المحاضرة. ولكنها ضمن الفترة الزمنية الممتدّة بين ١٤١١ و١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠ و١٩٩٩، وهي الفترة التي واصل فيها العلاّمة الفضلي رحمه الله إلقاء محاضراته العامّة في المنطقة.

(٢) يشارك في اللجنة التالية أسماؤهم: فؤاد عبد الهادي الفضلي، علي أحمد الأصيل، الشيخ أحمد عبد الجبّار السميّن، حسين منصور الشيخ.

الفقيد الكبير العلاّمة الدكتور عبد الهادي الفضلي، رحمه الله رحمة الأبرار، وأنزل عليه شآبيب الرحمة والمغفرة والرضوان، وحشره مع محبيه من آل البيت عليهم السلام، وجزاه لقاء ما قدّم للدين والأمة خير الجزاء، وأن يوفقنا لنشر جميع مؤلّفاته وتراثه الفكري خدمةً لهذا الدين الحنيف الذي وطّن عمره في خدمته وبَذَلَ جلّ جهده وفاءً له.

لجنة مؤلّفات العلاّمة الفضلي
١٠/ ٣/ ١٤٣٥هـ
١١/ ١/ ٢٠١٤م

القسم الأول

نَصّ المحاضرة

- مقدّمة
- بعثة الأنبياء: بحث في الطبيعة والغاية
- بعثة الأنبياء ومهمّة بناء الإنسان
- بعثة الأنبياء وقيادة المجتمع الإنساني

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى   وبعد

يُعَدُّ القرآن الكريم الوثيقة التاريخية الأوفى بتعريف وفهم الحركة النبويّة؛ وذلك لاحتوائه على القصص القرآني التي يفاد منها الكثير في دراسة السيرة العملية للأنبياء ومنهجهم في الدعوة إلى الله. وفيما يتعلّق بموضوع البحث، يمكن تحديد طبيعة البعثة النبوية والغاية منها وما يقوم به النبي من وظائف ومهام من خلال تلكم الآيات الحاكية عن دعوة الأنبياء وما يواجهونه من مواقف وآليات معالجتها من قبلهم عليهم السلام.

ولأن الحديث هو بمناسبة المبعث النبوي الشريف، ستكون الانطلاقة فيه من الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾[1]، حيث وردت في سياق الحديث عن بعثة النبي محمد ﷺ وتحديد مجموعة من المهام التي كان يؤديها ﷺ، ولذلك يمكن الاهتداء بفقراتها لاستيفاء معظم نقاط البحث.

وتمهيدًا للحديث عن وظائف الأنبياء، تُفتتَح الآية بالإشارة إلى الغاية من البعثة النبوية في أنها تفضُّلٌ وإنعامٌ من الله تعالى على عباده، لتنتقل بعدها إلى تناول طبيعة البعثة في المفهوم القرآني وأنها حالة بشرية صرفة، ومن ثَمَّ تنصرف بقية الفقرات إلى تحديد بعض وظائف نبينا الكريم محمد ﷺ، وهو ما يستدعي تقسيم البحث ـ في الآية ـ إلى فصلين، الأول منهما حول الغاية من البعثة وحقيقتها في المفهوم القرآني، فيما الفصل الثاني حول دور الأنبياء في بناء الإنسان من خلال ما يقومون به من مهام ووظائف محدّدة.

ولوجود وظائف أخرى لم تتطرّق الآية إليها، وفي مقدمتها قيادة المجتمع الإسلامي، وهي الوظيفة التي تحكيها لنا مفصَّلاً التجربة النبوية في إدارة وتنظيم المجتمع المسلم بدايةَ تكوّنه في المدينة المنوّرة، خصّصنا لها الفصل الثالث من الدراسة. على أمل أن تعطي هذه الإشارات الموجزة حول بعثة الأنبياء في فصولها الثلاثة إضافةً جديدةً لمبحث النبوة في المفهوم القرآني. إنه سبحانه ولي التوفيق، وهو الغاية.

عبد الهادي الفضلي

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

الفصل الأول

بعثة الأنبياء: بحث في الطبيعة والغاية

- بعثة الأنبياء لطف من الله تعالى
- تعدُّد الشرائع الإلهية
- بشرية النبي

بعثة الأنبياء لطف من الله تعالى

أول ما تفتتح به الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمنُّ هنا بمعنى: التفضُّل والتكرُّم والإنعام[1]، وهو ما يعبَّر عنه في علم الكلام باللُّطف الإلهي، ويقصدون به ما يقرِّب الإنسان من فعل التكاليف الإلهية ويبعّده عن المعاصي[2]. وما يذهب إليه الإمامية في أبحاثهم الكلامية، ويشترك معهم ـ في ذلك ـ المعتزلة بأن اللطف واجب على الله تعالى، كما يشير إلى ذلك الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) في نكاته الاعتقادية، إذ يقول: «فإن قيل: ما الدليل على أن نصب الأنبياء

(١) يشير الشيخ الطوسي إلى أن الأصل في المنِّ: القَطْع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٨]، أي غير مقطوع. والمَنُّ في الآية: النعمة؛ لأنه يُقطع بها عن البليّة. انظر: التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، بدون تاريخ، ج٣/ ٣٨؛ وانظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ج٢/ ١٠٦٠ ـ ١٠٦١، مادة: منن.

(٢) انظر: موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، الدكتور سميح دغيم، مكتبة لبنان ـ بيروت، ط١، ١٩٩٨م، مادّة: (لطف)، ج٢/ ص ١١٠٦ ـ ١١١٥.

والرسل واجب في الحكمة؟

فالجواب: الدليل على ذلك أنه لطف، **واللطف واجب في الحكمة،** فنصب الأنبياء والرسل واجب في الحكمة، ... فإن قيل: ما الدليل على أن اللطف واجب في الحكمة؟

فالجواب: الدليل على وجوبه توقّف غرض المكلِّف عليه، فيكون واجبًا في الحكمة، وهو المطلوب»[1].

ولعلّ التعبير القرآني الوارد في الآية الكريمة هو المناسب، إذ يتحاشى الكثير من علماء الكلام والحكماء إطلاق الوجوب على أفعال الله تعالى تجاه خلقه، ولذلك فإننا نذهب مع التعبير القرآني في التمهيد للحديث عن وظائف الأنبياء بأن أصل وجود هذه الظاهرة إنما هو تفضّل وإنعام من قبله تعالى على خلقه هدايةً وإرشادًا لهم من لدن حكيم عليم.

تعدُّد الشرائع الإلهية

وباعتبار بعثة نبينا الكريم محمد ﷺ خاتمةَ الرسالات الإلهية، من المهمّ الإشارة إلى ظاهرة تعدّد النبوات والأديان الإلهية؛ وذلك لبيان قيمة التشريع الإلهي في استجابته لحاجة المجتمع البشري، وكذلك استكمالاً للحديث أعلاه في كون البعثة لطفًا وتفضّلاً إلهيًّا.

ذلك أن الله تعالى قد بعث العديد من الأنبياء، فكان لبعضهم شرائع مستقلّة، فيما كان بعضهم الآخر يتبع شرائع سابقيه، وهناك

(١) النكت الاعتقادية، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: رضا المختاري، دار المفيد ـ بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، ص ٣٥.

نظرتان فيما يتعلّق بتعدّد الشرائع، تذهب الأولى منهما إلى أنّ ذلكم التعدّد إنما كان تكاملاً وتطوّرًا طبيعيًّا في حركة التشريع الإلهي، فكانت الشريعة اللاحقة استكمالاً لمسيرة الشريعة السابقة وتطورًا يتلاءم وطبيعة تطوّر المجتمع البشري الآخذ في التقدّم جيلاً بعد جيل، إلى أن جاءت الشريعة الإسلامية باعتبارها خاتمة التشريعات الإلهية، حيث وصل معها المجتمع البشري من النضج والقابلية بحيث لا يحتاج إلى شريعة متمّمة وأوسع من الشريعة الإسلامية الخاتمة.

[*] تكامل الرسالات

وهي نقطة يشير إليها السيد محمد حسين فضل الله في بيانه لتعدّد النبوات، فيقول: «إنَّ النبوة الجديدة لا تلغي النبوة القديمة؛ **لأن النبوات ليست منطلقةً من شخص النبي في ذاتياته الفكرية، بل هي من وحي الله الذي يشرّع للحياة كلها وللإنسان كله، في الخطّ العام الذي تتكامل فيه الرسالات وتتوزّع فيه الأدوار**، إلا ما يختصّ بمرحلة النبي في الزمن الذي يعيش فيه الناس الذين أرسل إليهم، والأوضاع التي قد يعرض عليها التغيير»[(١)].

ويضيف في موضع آخر أثناء حديثه عن الآية القرآنية: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾[(٢)]، فيقول: «ليعيش [النبي محمد ﷺ] التاريخ الرسالي في حركته الروحية، وفي نماذجه المميزة، كما لو كان في زمانهم، فتنطلق التجربة الحية في رسالته، لتكون منطلَقًا للسموّ والصفاء،

(١) من وحي القرآن، السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك ـ بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ج٦/ ٣٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

وانفتاحًا على العبرة الواعية التي تمنح الحاضر درسًا متحرِّكًا في تجربته من خلال الماضي في عملية تواصل بين الزمانين كمظهر للتواصل بين الرسالات»[1].

فالنبوات الإلهية ـ بهذا المعنى ـ تتكامل لا لتكوّن حلقات في سلسلة واحدة فحسب، بل تتكامل فيما بينها إذ يستفيد اللاحق فيها من السابق، فالتجارب النبوية السابقة زادٌ عملي مهمّ يتعامل معه الأنبياء بالاستفادة منه.

[*] النسخ في الشرائع الإلهيّة

وفي مقابل هذه النظرة، هناك نظرة أخرى مقابلة تذهب إلى أن كل شريعة مستقلّة، فجاءت شريعة نبي الله نوح عليه السلام تتماشى وطبيعة المجتمع في ذلكم الوقت، فيما كانت شريعة نبي الله إبراهيم عليه السلام متلائمة وطبيعة المجتمع الذي بعث فيه النبي إبراهيم، وهكذا فيما يتعلّق بشريعة النبي موسى، وشريعة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وكانت كل شريعة تنسخ ما قبلها من الشرائع الإلهية.

ولكن ما يجب التنبيه عليه هو أنَّ النسخ المُراد هنا هو في التشريع أو ما يعبّر عنه بفروع الدين، إذ لا نسخ في العقيدة، ذلك أن جميع الشرائع الإلهية تدعو الإنسان إلى الإيمان بعقيدة واحدة في المبدأ والمعاد، ولا خلاف بينها في مسائل العقيدة أبدًا.

بشرية النبي

في الفقرة التالية يقول سبحانه: ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾،

(١) من وحي القرآن، مصدر سابق، ج٦/ ١٠.

فوصف نبيّه ﷺ بأنه من أنفس المؤمنين، وهي تحتمل أحد معنيين، أشار إلى أحدهما الشيخ الطوسي في تبيانه، ويشاركه مجموعة من المفسرين إلى أنّ المقصود بأن الله اختار النبي محمدًا ليكون رسولاً في قومه، فهو منهم، وليس غريبًا عن المجتمع المكّي، وله ما لهم من المستوى الاجتماعي والتعليمي، فهو من «الأميين، لا يتلو كتابًا ولا يخطّ بيمينه، فنشأ بين قوم يَخْبُرُونه ويعرفونه بالصدق والأمانة، وأنه لم يقرأ كتابًا ولا لقنه [أحد]، فتلا عليهم أقاصيص الأمم السالفة، فكان ذلك من أدلّ دليل على صدقه فيما أتى به»[1].

وقد يكون المراد من عبارة «من أنفسهم»: النفس البشرية، وهو معنى تورده الآيات القرآنية على لسان المعارضين للنبوات، فيستنكرون أن يكون المرسل إليهم من الله من جنسهم البشري. يقول تعالى حاكيًا عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ﴾[2]. وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3].

وهو أمر ترفضه الحكمة الإلهية، بل تعدها الآية الكريمة محلّ البحث «إحدى مميزات هذا النبي ﷺ أنه من نفس الجنس البشري، لا من جنس الملائكة وما شابهها، وذلك لكي يدرك كل احتياجات البشر

(١) التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٣/ ٣٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.
(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ٨ – ٩.

بصورة دقيقة، ولا يكون غريبًا عنها، غير عارفٍ بها، وحتى يلمس آلام الإنسان وآماله، ومشكلاته ومصائبه، ومتطلبات الحياة ومسائلها، ثم يقوم بما يجب أن يقوم به من التربية والتوجيه على ضوء هذه المعرفة.

هذا، مضافًا إلى أن القسط الأكبر من برامج الأنبياء التربوية يتكون من تبليغهم العملي، بمعنى أن أعمالهم تعتبر أفضل مَثَل، وخير وسيلة تربوية للآخرين؛ لأن التبليغ بلسان العمل أشدُّ تأثيرًا، وأقوى أثرًا من التبليغ بأية وسيلة أخرى، وهذا إنما يمكن إذا كان المبلغ من نوع الجنس البشري وجنسه وخصائصه، ومواصفاته الجسمية، وبذات غرائزه وبنائه الروحي»[1].

وهنا نقطة يجب التنبيه عليها، وهي أن طبيعة عمل الأنبياء هي الدعوة، فالنبي داعية إلى الله، والتجربة الإنسانية الاجتماعية تشير إلى أن تأثير الداعية في المجتمع الذي ينتمي إليه أبلغ من ذلكم الغريب، فهو أعلم بطبيعة مجتمعه وعوامل التأثير فيه. ولذلك فإن الإتيان بمخلوق آخر من غير الجنس البشري يتنافى وطبيعة العمل الدعوي الذي تقتضيه الحالة النبوية.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة ـ بيروت، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ج٢/ ٥٩٥. وحول المعنى نفسه، انظر: من وحي القرآن، مصدر سابق، ج٦/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

الفصل الثاني

بعثة الأنبياء ومهمّة بناء الإنسان

- الوظيفة الأولى: تبليغ الرسالة دون نقصان
- الوظيفة الثانية: التربية
- الوظيفة الثالثة: إحداث النقلة الحضارية للمجتمع
- الوظيفة الرابعة: الموازنة بين العقل والإيمان
- بناء الشخصية الإسلامية

الوظيفة الأولى: تبليغ الرسالة دون نقصان

بعد الإشارة إلى بشرية النبي وطبيعة انتمائه، تنتقل الآية الكريمة إلى بيان أولى وظائف الأنبياء، وهي وظيفة التبليغ، إذ يقول سبحانه: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي يبلغ المسلمين آيات القرآن الكريم، وهي الوظيفة الأساسية لأي نبي، فتبليغ الرسالة هي المهمّة الأولى التي يتكفّل الأنبياء بأدائها بكل أمانة ودقّة.

[*] اجتهاد النص واجتهاد الرأي

وما تجب الإشارة إليه هنا أن نبينا محمدًا ﷺ لم يرحل عن هذه الدنيا إلا بعدما أتمّ مهمّته في تبليغ القرآن كاملاً دون أي نقيصة، كما قام بتفصيل وبيان آياته كاملةً من خلال ما يلقيه من أحاديث ويجسّده من أعمال يومية تمثّل النموذج في تطبيق الشريعة الإسلامية. ولعلّ هذه النقطة تعدّ من أبرز الفوارق بين المدرستين الإسلاميتين الكبريين، وهما: مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ومدرسة الصحابة.

ذلك أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام تذهب إلى أن ما جاءت به الآيات

الكريمة ـ مصدرًا أول في التشريع ـ وتليها الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ ـ مصدرًا ثانيًا في التشريع ـ وافية وكافية بتزويد المسلمين بالأحكام الشرعية، ولهذا فإن ممارسة الاجتهاد الشرعي في شقّه الإمامي تنحصر في فهم النصوص الشرعية وعدم الخروج عنها إلى آليات ومصادر أخرى، بحيث تكون هذه النصوص هي المصدر الأساس والوحيد للأحكام الشرعية، وما يحتاجه الفقيه المجتهد هو النص الشرعي الصريح في بيان الحكم الشرعي لمجموعة من المسائل الشرعية، وكذلك إلى النص الشرعي الذي يفيد منه القاعدة الفقهية التي تعينه في بيان الحكم الشرعي لتلكم المسائل التي لم يرِد فيها نصّ شرعي مخصوص.

ولذلك، فإن المجتهد ـ في الفهم الإمامي ـ هو: ذلكم العالم الذي يجتهد في فهم النص الشرعي وإعطاء الأحكام ضمن إطار الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، بما يملك من وسائل علمية وثقافية تعينه على توجيه الحكم المطابق لما ورد في تلكم النصوص الشريفة.

وهي المنهجية التي تختلف معها المدرسة السنية في معظمها، إذ تضيف المدرسة الفقهية السنية في مقابل هذه النصوص: الرأي، باستثناء المذهب الظاهري[1] الذي يعدّ من المذاهب الفقهية البائدة، إذ يكتفي علماء المذهب الظاهري بالاجتهاد ضمن إطار النص الشرعي دون

(١) نشأ المذهب الظاهري على يد داود بن علي الظاهري (٢٠١ ـ ٢٧٠هـ)، الذي كان «يعتمد في استنباط الأحكام الشرعية على ظاهر النصوص من القرآن والسنة النبوية، دون تعليل الأحكام، ولا تأويلها، ومن غير أخذ بالقياس والرأي الشامل للاستحسان والمصلحة المرسلة ونحوهما». انظر: الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة التابعة لرئاسة الجمهورية السورية ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٤م، ج٩/ ١٨٢.

الخروج عنه، فيما تذهب بقية المذاهب إلى عدم كفاية النص الشرعي، وحاجة الفقهاء إلى تشريعات جديدة مستوحاة من فهم الفقيه لروح التشريع الإسلامي في المصلحة والمفسدة وتقرير الأحكام الفقهية بناءً لما يفهمه الفقيه من مصلحة إسلامية عليا، فيعطي رأيه في المسألة الفقهية بناءً على ما يتعرّفه للفعل من المصلحة أو المفسدة. ولهذا يتنوّع الاجتهاد الشرعي في الإسلام إلى: اجتهاد الرأي، واجتهاد النص[(١)].

وما يَحْمِلُ المدرسةَ الإماميةَ على اتباع منهجها في اجتهاد النصّ هو ما ورد من نصوص شرعية مُلْزِمة بتقيّد المسلمين لتلكم النصوص وعدم الخروج عنها، وكذلك لما تفهمه هذه المدرسة من خصوصية لطبيعة التشريعات الإلهية، ذلك أن هذه التشريعات معصومة عن الخطأ في وضع الأحكام المناسبة والملائمة للإنسان، وأن تطبيقها تطبيقًا أمينًا هو ما يكفل للإنسان الوصول إلى السعادة المبتغاة. وهذا الفهم هو خلاف المدرسة المقابلة التي عاملت التشريع الإسلامي كما تتعامل الشعوب مع قوانينها المدنية أو الوضعية، حيث يمكن للفقيه القانوني أن يتعامل مع القواعد والنظم الدستورية من خلال فهمه لروح القانون، لينطلق من خلال ذلكم الفهم إلى استصدار قوانين وتشريعات جديدة تتطابق وتلكم الروح العامة والجامعة.

(١) لمزيد من الاطلاع، يُراجَع: دروس في فقه الإمامية، الدكتور عبد الهادي الفضلي، مؤسسة أم القرى ـ قم، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ج١/ ٥٩ ـ ١١؛ وتاريخ التشريع الإسلامي، الدكتور الفضلي، مركز الغدير ـ بيروت، ط٢، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م، ص ٦٦ ـ ٧١؛ وقراءة في كتاب التوحيد، الدكتور الفضلي، منشورات بيت الحكمة الثقافي ـ القطيف، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م، ص ١٩ ـ ٢٥.

[*] كتاب عليّ/ صحيفة علي/ الصحيفة

وبالإضافة إلى ذلك، هناك عامل تاريخي ساهم بصورة كبيرة في حفظ السنة النبوية في مدرسة أهل البيت عليهم السلام لم يتوفّر لأتباع مدرسة الصحابة، ذلك أنّنا نؤمن بأن الأحاديث التي كان يذيعها رسول الله بين أصحابه كانت كافية ووافية بجميع ما يحتاجه المسلمون إلى أن تقوم الساعة، وأن هذه الأحاديث كان قد أولاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أولى القرآن كل عناية واهتمام، فكان يمليها على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. وقد جمعها الإمام علي فيما يُطلِق عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام بصحيفة عليّ أو كتاب عليّ أو الصحيفة.

وقد ذكرت باسم (كتاب علي) في عدة من كتب الحديث وكتب الفقه، وعنونها الشيخ الطهراني في (الذريعة ٢/ ٣٠٦) بـ (أمالي سيدنا ونبينا أبي القاسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

وهي ـ كما جاء في وصفها ـ من نوع الكتب المدرجة التي تطوى وتلف، وإذا أريد قراءتها تفتح ثم تقرأ.

وقد ذكر رجوع الأئمة من أبناء علي عليه السلام إليها والنقل عنها أكثر من كتاب، ومن هذا:

ـ ما رواه أبو العباس النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠هـ في فهرسته المعروف بـ (رجال النجاشي) قال في ٢/ ٢٦١: «أخبرنا محمد بن جعفر[1]، قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن سعيد عن محمد بن أحمد بن

(١) النحوي التميمي، شيخه في الإجازة.

الحسن عن عباد بن ثابت عن أبي مريم عبد الغفار بن القاسم عن عذافر الصيرفي، قال: كنت مع الحكم بن عتيبة، عند أبي جعفر عليه السلام، فجعل يسأله، وكان أبو جعفر عليه السلام له مكرمًا، فاختلفا في شيء، فقال أبو جعفر عليه السلام: يا بنيَّ، قم فأخرج كتاب علي عليه السلام، فأخرج كتابًا مدروجًا عظيمًا، ففتحه وجعل ينظر، حتى أخرج المسألة، فقال أبو جعفر عليه السلام: هذا خط علي عليه السلام وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقبل على الحكم، وقال: يا أبا محمد، اذهب أنت وسلمة[1] وأبو المقدام[2] حيث شئتم يمينًا وشمالاً، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرائيل عليه السلام»[3].

ـ ما ذكره الشيخ الطهراني في (الذريعة ٢/ ٣٠٧) من أن «قطعة من هذه (الأمالي) موجودة بعينها حتى اليوم في كتب الشيعة، ـ وذلك من فضل الله تعالى ـ أوردها الشيخ أبو جعفر بن بابويه الصدوق في المجلس السادس والستين من كتاب أماليه، وهي مشتملة على كثير من الآداب والسنن وأحكام الحلال والحرام، يقرب من ثلاثمائة بيت، رواها بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام بروايته عن آبائه الكرام.

وقال الصادق عليه السلام في آخره: أنه جمعه من الكتاب الذي هو إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط علي بن أبي طالب عليه السلام».

ـ كما وردت في بعض المصادر باسم (صحيفة عليّ)، كما في كتاب (الوافي): «عن أبي بصير: قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقلت له:

(١) ابن كهيل.

(٢) ثابت بن هرمز الحداد.

(٣) رجال النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ، تحقيق محمد جواد النائيني، بيروت: دار الأضواء، ط١ سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ج٢/ ٢٦١.

جعلت فداك، إني أسألك عن مسألة، ها هنا أحد يسمع كلامي؟.. قال: فرفع أبو عبد الله عليه السلام سترًا بينه وبين بيت آخر فاطلع فيه، ثم قال: يا أبا محمد، سل عما بدا لك.

قال: قلت: جعلت فداك، إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علّم عليًّا عليه السلام بابًا يفتح له منه ألف باب.

قال: فقال: يا أبا محمد، علّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليًّا عليه السلام ألف باب يفتح من كل باب ألف باب.

قال: قلت: هذا ـ والله ـ العلم.

قال: فنكت ساعة في الأرض، ثم قال: إنه لعلم، وما هو بذاك.

قال: ثم قال: يا أبا محمد، وإن عندنا (الجامعة)، وما يدريهم ما الجامعة!

قال: قلت: جعلت فداك، وما الجامعة؟

قال: صحيفة طولها سبعون ذراعًا بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإملائه من فَلْقِ فيه[1]، وخط علي صلى الله عليه وآله وسلم بيمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج إليه الناس حتى الأرش في الخدش.. وضرب بيده إليّ، فقال: تأذن لي يا أبا محمد؟

قال: قلت: جعلت فداك، إنما أنا لك، فاصنع ما شئت.

قال: فغمزني بيده، وقال: حتى أرش هذا.. كأنه مغضب.

(١) فلق فيه: شق فمه.

قال: قلت: هذا ـ والله ـ العلم»[١].

كما استظهر السيد الأمين أنها المسماة بالجامعة في بعض المصادر، قال في كتابه أعيان الشيعة: «من مؤلفات أمير المؤمنين عليه السلام: الجامعة، وهي كتاب طوله سبعون ذراعًا من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام، مكتوب على الجلد المسمى بالرق ـ وكان غالب الكتابة عليه في ذلك العصر لقلة الورق في عرض الجلد ـ جمعت الجلود بعضها إلى بعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعًا بذراع اليد ـ الذي هو من المرفق إلى رؤوس الأصابع»[٢].

الوظيفة الثانية: التربية

بعد وظيفة التبليغ، تنتقل الآية الكريمة إلى بيان وظيفة أخرى، وهي التربية، يقول تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، والمراد من التزكية هنا: التربية، إذ هي الوظيفة الثانية للنبي بعد تبليغ الرسالة. ذلك أن الدين الإسلامي لا يمكن فهمه وإدراك قيمته مقارَنًا مع بقية الأنظمة الأخرى إلا من خلال التطبيق، فبعد أن يقوم النبي بإيصال الرسالة في شقّها النظري من خلال تلاوة وحفظ الآيات القرآنية وبيانها فيما يبثّه من أحاديث شريفة، لا بدّ للدين من تطبيق في الواقع، وهو الدور الذي تقوم به التربية وتزكية النفوس وتنقيتها «من رواسب الجاهلية والشرك، ومن بقايا العقائد الباطلة والأفكار الخرافية، والأخلاق الحيوانية القبيحة؛ لأن الضمير الإنساني ما دام لم يطهر من الأدران والرواسب،

(١) الوافي، الفيض الكاشاني، إيران: ط حجر ١٣٢٤هـ.

(٢) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ)، تحقيق: السيد حسن الأمين (ت ١٤٢٣هـ)، دار التعارف ـ بيروت، ط٥، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ج١/ ١٣١.

لا يمكن إعداده وتهيئته لتعليم الكتاب الإلهي والحكمة والعلم الواقيين»[1].

إن ما تعطيه مفردة التزكية في سياق هذه الآية أن ما يقوم به النبي بعد تبليغ الآيات هو تهيئة المجتمع المسلم وتربيته ليكوّن منه المجتمع النموذج، وذلك ليواصل هذا المجتمع مسيرة الدعوة والرسالة بعد النبي ﷺ. وهو ما نفيده من آية أخرى، يقول فيها عزّ وجلّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2]، إذ المراد بـ ﴿أُخْرِجَتْ﴾: كُوِّنَت تكوينًا خاصًّا وقُدِّمَت بعد ذلك إلى الناس لتكون بمستوى أن تكون هي الأمة الشاهدة على بقية الأمم، كما في الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[3].

ولذلك فإن إيمان الإنسان وتصديقه بالشهادتين وتلقّيه للآي القرآني لا يكفي لأن يكون شاهدًا على الناس، فهو لّما يتغلغل الإسلام في نفسه وروحه بعدُ، فالشهادة على الناس تتطلّب أن يكون الإنسان مسلمًا رساليًّا يؤمن بالمبدأ ويطبّقه على نفسه وفي علاقاته مع الآخرين، وما لم نتغلّب على ما نعيشه اليوم من مفارقات بين ما نؤمن به وما تعيشه مجتمعاتنا أفرادًا وجماعات، فلن تصل هذه الأمة إلى ما أعده الله إليها من خيريّة تتفوّق بها على جميع الأمم والشعوب.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج٢/ ٥٩٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

الإسلام لا ينحصر في الطقوس العبادية

ولذلك أودّ الإشارة إلى أن هناك مفهومًا تقليديًّا للدين، يحصر مفهومه في الطقوس العبادية وعلاقة الإنسان بخالقه فقط، وهو مفهوم منقوص عن الدين الإسلامي يحصر فيه تديّن الإنسان فيما يلتزم به من عبادات: الصلاة والصوم والحجّ وأداء الحقوق الشرعية، ذلك أن الإسلام أوسع من ذلك بكثير. فالإسلام كما ينظّم علاقة الإنسان بخالقه ويوجّه سلوك الإنسان الفردي، فله نظرة خاصّة في تنظيم العلاقات الاجتماعية والأممية، وهو ما نفيده من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي توسّع من دائرة اهتمام الإنسان، حيث تلقي عليه ـ بجانب اهتماماته الشخصية ـ أن يكون لديه حسّ الانتماء الجماعي، وما يتطلّبه ذلك من شعور بمسؤولية الفرد عن أوضاع مجتمعه وبني جنسه، بحيث تقع على الفرد مسؤولية القيام بالتكاليف الشرعية، وبجانب ذلك أن يتحمّل جزءًا من المسؤولية تجاه أداء المجتمع لتلكم التكاليف وبقاء صبغته الإسلامية.

إنّنا ـ وبكل أسف ـ لا نقوم إلا بالمسؤولية الفردية، وبجزء منها، أما المسؤولية الاجتماعية، فهذه لا يتصوّر الكثير منّا أنها جزءٌ من التكليف الملقى عليه إسلاميًّا، وهو بخلاف ما توجّهنا إليه الآية الكريمة في بيانها لوظائف النبوة، ذلك أن مسؤولية التربية التي يقوم بها النبي هي تهيئة المجتمع الإسلامي بحيث يكمل المسيرة بعد رسول الله، وهو ما يستدعي وجود روحية قيادية تلقي على نفسها مسؤولية الحفاظ على كيان المجتمع المسلم في أسسه ومبادئه، وهو ما يؤدي إليه الحديث الشريف: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته»، فتحمّل المسؤولية العامّة كما كانت من وظائف النبي ﷺ، هي وظيفة يتحملها المسلم تجاه مجتمعه أيضًا.

الوظيفة الثالثة: إحداث النقلة الحضارية للمجتمع

في بيان الآية لوظائف ومهام النبي ﷺ، تنتقل إلى الوظيفة الثالثة، وهي في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. وعند مراجعة معظم التفاسير سنجد أنها تشير إلى أن المراد بالكتاب هنا هو القرآن الكريم[1].

ولكن سياق الآية الكريمة لا يساعد على أن يكون المراد بالكتاب هو القرآن، إذ سبق أن أشارت الآية إلى أن النبي من وظيفته تلاوة الآيات القرآنية على قومه، ولا حاجة للتكرار حينها. وقد أشار الشيخ الطوسي في تبيانه إلى هذه النقطة، ولكنه ذهب إلى أن الغرض من تكراره: «اختلاف فائدة الصفتين، وذلك أن [لفظ] الكتاب ذكر للبيان أنه مما يُكْتَب ويخلّد؛ ليبقى على الدهر»[2]. وما يريد الشيخ الطوسي الإشارة إليه أن المراد من لفظ الكتاب في الآية هو القرآن الكريم، ولكنّه أعيدت الإشارة إليه بلفظ الكتاب لبيان أن الآيات القرآنية ستجمع في كتاب، وهو ما يحفظها من الضياع والاندثار. وهو معنى بعيد ربما.

وما أستقربه من معنى أن المراد من تعليم الكتاب في الآية ما يطلق عليه اليوم: محو الأمية، وهو ما يعني بتعبير آخر: نقل المجتمع العربي في

(١) انظر على سبيل المثال: تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ص ٧٨؛ وتفسير الطبري، تحقيق: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، ج٤/ ٢٠٥؛ والتبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، مصدر سابق، ج٣/ ٣٩؛ والتحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ط١، ١٩٨٤م، ج٤/ ١٥٩؛ والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج٢/ ٥٩٦؛ ومن وحي القرآن، مصدر سابق، ج٦/ ٣٦٤ـ ٣٦٥.

(٢) التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٢/ ٣٩.

ذلكم الوقت من طور البداوة والأمية الذي كان يرزح فيه إلى طور التحضّر والتقدُّم المعرفي، فالآية ـ بهذا المفهوم ـ تضع من مسؤوليات النبي ﷺ رفع مستوى المجتمع وتطويره إلى أن يصل إلى أن يكون مجتمعًا لديه حضارة تخصّه قائمة على أسس من الإيمان بالله وبقيم الدين الإسلامي العامّة التي تطبع سلوكيات جميع أبنائه.

ولعل ما يعزّز هذه المعنى ما تختتم به الآية، إذ تعقد الآية ما يشبه المقارنة بين وضع المجتمع العربي ما قبل الإسلام وما بعده، إذ تشير إلى أنه كان في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فيما هو ـ بهذه الوظائف والمهام التي يؤديها رسول الله ﷺ يرتقي ليكون مجتمعًا متحضرًا.

الوظيفة الرابعة: الموازنة بين العقل والإيمان

يجازي اللهُ الإنسانَ ويعاقبه بما وهبه من نعمة العقل، وبما وصل إليه من رُشد يميّز فيه بين الحقّ والباطل وبين الصواب والخطأ. ولذلك فإن أنبياء الله حينما يدعون الناس إلى الإيمان بما يبشّرون به من شرائع وأديان جديدة، إنما يستجيب أولئكم الأقوام بما يرجحونه من دلائل وبيّنات، ووسيلتهم في ذلك العقل. وحينما يؤمنون بالدين ويدخلون فيه، لا يعني ذلك أن يشلّ الإنسان حركة العقل لديه، بل يوازن بين إيمانه العميق وثقته الكاملة بالحكمة الإلهية وبين ما تدعوه إليه المبادئ العقلية الأولى وما يؤديه إليه نظره.

ولذلك فإن من أبرز وظائف النبي ﷺ التي تشير إليها الآية الكريمة هو تربية المؤمنين على تلكم الموازنة، وهي ما تعبّر عنه الآية هنا بـ «الحكمة». ذلك أن الحكمة: وضع الشيء في موضعه الصحيح،

فعندما يتحدّث الإنسان، ويضع الكلام في مواضعه السليمة، فيزن كل كلمة ينطقها، يوصف بأنه حكيم في حديثه، وعندما يتعامل الإنسان مع شؤونه الحياتية اليومية، فيضع الأمور بموازين العقل والإنصاف، يوصف بأنه حكيم في تصرّفاته وسلوكياته.

وما كان يقوم به رسول الله ﷺ مع أصحابه في تعامله معهم وتوجيهه لهم هو تربيتهم لوزن سلوكياتهم بين الالتزام الأمين بالأحكام الشرعية دون إغفال العقل، وكان خير معينٍ له ﷺ في ذلك الهدي القرآني الذي أكّد في العديد من آياته المباركة على استعمال العقل، وأن نداءاته إنما هي لقومٍ يعقلون. يقول جلّ شأنه في حديثه عن قوم لوط: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. وفي آية أخرى، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]. بل إن القرآن يصف أولئكم الذين لا يستعملون عقولهم بأنهم شرّ الدواب، فيقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

وإلى هذا المعنى حول الحكمة، يشير السيد محمد حسين فضل الله

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

في تفسيره، فيقول: «تمثّل «الحكمة» خطّ التوازن في حركة الإنسان في نفسه ومع الإنسان الآخر، ومع الحياة، بعد أن يكون قد انفتح على كل الحكمة في علاقته بالله، فيضع كل شيء في موضعه، ويعطي كل إنسان حقّه، وكل شيء حاجته، من دون زيادة أو نقصان. وبذلك ـ أي المعرفة الكتابية التي تمثّل الهدى في خط وعي النظرية على مستوى القاعدة الفكري، والمعرفة التطبيقية العملية في معنى الحكمة ـ تكمن قيمة الإسلام في عطائه الفكري والعملي للإنسان»[1].

بناء الشخصية الإسلامية

في نظرة عامّة إلى مجموع هذه الوظائف والمهام التي يقوم بها نبينا الكريم محمد ﷺ نجد أنها تهدف في مجموعها إلى بناء الشخصية الإسلامية التي تحمل الثقافة والقيم الإسلامية من خلال ما تتلقّاه من رسالة إلهية تامّة كافية ووافية بجميع ما تحتاجه هذه الشخصية في بناء العلاقات الإنسانية الصحيحة، على مستوى الفرد، وعلى مستوى المجموع.

(١) من وحي القرآن، مصدر سابق، ج٦/ ٣٦٥.

الفصل الثالث

بعثة الأنبياء وقيادة المجتمع الإنساني

- الوظيفة الخامسة: قيادة المجتمع المسلم
- حاجة المجتمع إلى النظام
- الفارق بين الأنظمة الإلهية وغير الإلهية
- تمسّك المسلمين بدينهم نظامًا حاكمًا

الوظيفة الخامسة: قيادة المجتمع المسلم

بالإضافة إلى ما مرّ ذكره من وظائف أشارت إليها الآية الكريمة، يمكن إضافة وظيفتين أخريين بارزتين للنبي ﷺ، يمكن ملاحظتهما من خلال الاطلاع العامّ والمفصل للسيرة النبوية المطهرة، وهما: القيادة والحكم.

فنبينا الكريم محمد ﷺ عندما أقام دولةً إسلاميةً في المدينة المنوّرة، كان رأس الدولة والحاكم فيها، والقائد العامّ لذلك المجتمع الإسلامي الوليد. ومارس العديد من الأدوار القيادية فيه، فكان الحاكم العام، وقائد الجيش، والحَكَم أو القاضي فيما يحصل من نزاعات وخصومات داخل المجتمع.

ولبيان أهمية وميزة النظام الإسلامي الذي مثّله نبينا الأكرم محمد ﷺ، أمهّد لذلك بالإشارة إلى قيمة ومنزلة النظام في المجتمع الإنساني، ذلك أن الإنسان بطبيعته يحتاج إلى ما ينظّم شؤونه الفردية والاجتماعية، وتعدّ هذه المسألة من البديهيات في الحياة البشرية، وبها قامت الدول والتجمّعات طوال مديات التاريخ.

حاجة المجتمع إلى النظام

ولكنّ التجارب الإنسانية في التنظيم وتأسيس الدول، لم تكن ناجحةً في العديد من نماذجها، فكانت تلكم الأنظمة العديدة التي قلّما تتحقّق فيها السعادة والعدالة الاجتماعية للجميع، وهو ما يستدعي نوعًا من السخط على تلكم الأنظمة الجائرة والظالمة والمستبدّة.

وقد ظهرت بعض ردّات الفعل التي رأت في النظام أساسًا للظلم والاستبداد، فذهبت إلى نظرية تدعو فيها إلى تطبيق فلسفة اللاسلطوية التي كان من أوائل من نادى بها المفكر البريطاني وليام غودوين (William Godwin) (١٧٥٦ ـ ١٨٣٦م)، وهي فلسفة تتهم الدولة باللاأخلاقية، وتعارض السلطة في تسيير العلاقات الإنسانية. كما تدعو إلى تَراجُع مركزية الدولة، وتعلي من شأن الإدارة الاجتماعية القائمة على مركزية الفرد. ويرجع مفهومها المعاصر إلى التطوّرات التي طرأت على الإنتاج السلعي البسيط في العقد الرابع من القرن التاسع عشر الميلادي، وبخاصة في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا؛ حيث أصيب الرأسماليون الصغار بالسخط وخيبة الأمل لإفلاس مشروعاتهم الصغيرة والمتوسطة وعجزها عن مواجهة الاحتكارات الزاحفة وتركُّز رؤوس الأموال لدى طبقة محدّدة تساعدها أنظمة الدولة على تضخّم ثرواتها على حساب بقية أفراد المجتمع. ويدعو أنصار فلسفة اللاسلطوية إلى مجتمعات مبنية على أساس جمعيات تطوعية غير هرمية، ولا يتشكّلون ضمن نظام ومؤسسات الدولة[1].

(١) انظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، النسخة العربية، مادتي: (وليام غودوين) و(اللاسلطوية).

وقد أثبتت التجربة عدم واقعية مثل هذه الدعوات، إذ لا بدّ للناس من نظام يرجعون ويتحاكمون وِفْقه، وأن يقوم على تنفيذ هذا النظام مؤسسات وموظفون، وإلا لا فائدة من هذا النظام حينها، ومن دون ذلك يحلّ الهرج والمرج. وكان هذا النوع من الدعوات قد ظهر في عهد أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام من قِبَل الخوارج، وذلك في مقولتهم التى كانوا يرددونها: «لا حكم إلا لله»، فقال لهم أمير المؤمنين دافعًا إشكالهم الفوضوي ذاك: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ. نَعَمْ، إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلا لله، ولَكِنَّ هَؤُلاءِ يَقُولُونَ: لا إِمْرَةَ إِلا لله. وإِنَّهُ لا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ. يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، ويَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ. ويُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ، ويُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، ويُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، ويُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، ويُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ»[1].

والإمام بهذا يقرّ الخوارج على أن النظام الذي يجب أن يُستند إليه في الحكم يجب أن يكون هو النظام الإلهي. ولكنّ دعوتهم تستبطن أن يظلّ الناس بدون قائم على تطبيق النظام، وهذا ما يشيع الفوضى ويسبّب انعدام الأمن الاجتماعي، وهو معنًى يدركه الجميع في حال غياب أي مؤسسة من مؤسسات الدولة عن أي مجتمع من المجتمعات، حيث تعمّ الفوضى في تلكم الناحية التي تغيب عنها تلكم المؤسسة.

ولذلك فإن الإنسان يحتاج إلى نظام يحتكم إليه ويتعامل مع نفسه والآخرين وِفْقَه، وهذه حقيقة لا يمكن أن يتجاوزها الإنسان أو يهرب منها، وهي حقيقة تبشّر بها جميع الأيديولوجيات الإنسانية، الدينية وغير الدينية.

(١) نهج البلاغة، نهج البلاغة، خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جمع الشريف الرضي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ)، دار المعرفة ـ بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ج٤/ ٤٥.

ونظرًا لتعدّد الأنظمة اليوم والأيديولوجيات المتفرّعة عنها أو المؤسسة لها، لا بدّ للإنسان أن يختار من بينها، وهي إما أنظمة وتشريعات إلهية، كما هي الحال مع الإسلام، أو أنظمة وتشريعات مدنية، كما هي الحال مع أنظمة الحضارة الغربية وتلكم المنظومات الاشتراكية الشرقية.

الفارق بين الأنظمة الإلهية وغير الإلهية

ولتكون مسألة الاختيار واضحة للإنسان، عليه أن يتبيّن الفارق بين تلكم الخيارات المطروحة أمام ذهنه، لتكون مسألة الاختيار قائمة على أساسٍ واضحٍ وصحيح؛ ذلك أن من أبرز الفوارق بين منهجية كلا التشريعين الإلهيِّ والمدني أن التشريعات المدنية يكون موضع اهتمامها هو تنظيم علاقات الإنسان الاجتماعية في حدود ضيّقة جدًّا، وهي الضوابط التي من شأنها الحفاظ على النظام العام الذي يحكم هذه العلاقات فيما من شأنه أن يوفر الأمن الاجتماعي، والاستقرار السياسي لأي مجتمع يخضع لذلكم الدستور أو القانون.

ولذلك، لا تتدخّل القوانين المدنية في تنظيم علاقة الإنسان بربّه، ذلك أن هذه الأنظمة المدنية تَعُدُّ العلاقة العِبَادية أمرًا خاصًّا، وليس لقانون الدولة أو دستورها أن يتدخّل فيه أو يوجّهه. ولذلك تُشاع في تلكم المجتمعات عبارة: «الدين لله، والوطن للجميع»، بمعنى أن تنظيم علاقة الإنسان بخالقه أمر يدور شأنه بين الإنسان وخالقه، وهو ما يتكفّل به الدين، فيما العلاقات الاجتماعية أمر مَدَني، للإنسان أن يديره بما يتوافق الناس عليه في ذلك المجتمع من أنظمة ودساتير.

وخلافًا للأنظمة المدنية، تُعنى التشريعات الإلهية بتنظيم علاقة الإنسان بخالقه، ومعها علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وبما حوله من الطبيعة. كما أنها (أي التشريعات الإلهية) توجّه الإنسان حول ما يعتقده من أفكار وأيديولوجيات وفلسفات عامّة. فالدين كما يهتمّ بنمط الإنسان السلوكي والعملي، يهتمّ بتنظيم النمط الفكري والنظري أيضًا. وبخاصّة ما يرتبط بالأسئلة الكونية الكبرى التي تتجاهلها تلكم الأنظمة الوضعية، ذلك أن الدين يقدّم إجابات واضحة حول مُبتَدَأ الكون ونهايته، فإذا تفكّر الإنسان حول الكون، فالأديان تعطيه الإجابة بأن الكون له بداية محدّدة، وأن مُبْدِئه هو الله ذو الصفات المعينة، وله نهاية، تقع فيها أحداث واضحة وبيّنة.

[*] القوانين المدنية وتعدّد التجارب

ومن الفوارق المهمّة بين التشريعات الإلهية ونظيرتها المدنية: أن مصدر التشريع في الأولى هو الوحي الإلهي، ولذلك فإن أحكامها وموادها لم ترد في التشريع بناءً على التجربة والممارسة، وإنما هي وحي إلهي مُنْزَل، خلافًا للقوانين المدنية المدوّنة بناءً على عنصر التجربة والممارسة المتراكمة، ولذلك ـ فهي مقارنةً مع التشريعات الإلهية ـ أكثر تغيُّرًا وتبدُّلاً، وذلك بعد إخضاعها للتجربة وفشل بعضها وحاجة البعض منها إلى التهذيب أو الإقرار أو الإلغاء أو غير ذلك من التغييرات المحتملة.

وما يجعل الأولى أكثر ثباتًا هو أنها صادرة عن خالق الإنسان والأعلم بما يتلاءم وطبيعته الإنسانية، فيما الثانية صادرة عن العقل الإنساني الذي ـ مهما أوتي من رجاحة وحنكة ـ غير قادر على إدراك

الطبيعة الإنسانية بصورة عميقة، كما هي الحال مع الخالق جلّ وعلا.

ويضاف إلى ذلك (عدم الإحاطة) أن التاريخ الإنساني السلطوي هو في معظمه تاريخٌ مليء بالنزاعات والأطماع الشخصية لدى الأقوياء على حساب الضعفاء، ومن يضع الدساتير والقوانين التي تحكم المجتمع لن يكون في جميع حالاته جهة مؤتمنة، هدفها الأساس تحقيق الأمن والعدل الاجتماعيين، وإنما هم في معظمهم أتباع لتلكم السلطة التي تجعل من القوانين متماشيةً ومصلحتها الشخصية فيما يضمن لها استمراريّة أكثر في الحكم. وهي نقطة غير متحقّقة في الشرائع الإلهية، الصادرة عن الله تعالى، حيث لا مصلحة ذاتية على حساب المجموع العام، وإنما يُراعَى فيها المصلحة العامّة وتجنّب المفسدة أو وقوع الظلم على أحد.

إننا ـ كمسلمين ـ نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون، وهو الأعلم بخلقه وبما يتلاءم وطبيعته، وأن نوع العلاقة بين الله وعباده هي علاقة محبّة مِنْهُ تعالى لِخَلْقِهِ، يريد لهم جميع ما من شأنه أن يُصلحهم، ويُريد في تشريعاته أن يُبعِدَ عنهم جميع ما من شأنه أن يفسدهم، أفرادًا ومجموعات.

وهي الحال التي تورث الثقة بين الخالق وعباده في جميع ما يصدر عنه تعالى، ولذلك فإننا نعتقد في الشريعة المنزلة من الله تعالى بأنها الشريعة المعصومة عن الخطأ، وأن الالتزام التامّ والأمين بها يعصم المجتمع الإنساني عن الوقوع في خطأ وزلاَّت القوانين الظالمة أو الجائرة، ويحقّق السعادة للجميع.

ولذلك، فإن ما نعتقده من عصمة لأولياء الله الصالحين الذين يأتي الأنبياء والأئمة في طليعتهم إنما هي من الفهم الواعي والصحيح للشريعة الإلهية؛ ذلك أننا نعتقد في الأنبياء والأئمة عليهم السلام أنهم فهموا ووعوا الرسالة الإلهية فهمًا صحيحًا تامًّا ورأوا فيها الطريق الموصل إلى السعادة الحقيقية، ولم يحيدوا عن ذلك الفهم في تطبيقها قيد أنملة، ولأنها الشريعة المعصومة، فإن تطبيقها تطبيقًا أمينًا وواعيًا في السلوك والمعتقد هو ما نعتقده من معنى للعصمة، ولا نحتاج إلى الكثير من الأدلة على عصمة أئمتنا إذا ذهبنا إلى هذا المعنى للعصمة.

تمسّك المسلمين بدينهم نظامًا حاكمًا

لقد كان في نموذج الحكمين النبوي والعلوي مثالاً أعلى في قيادة المجتمع الإنساني نحو السعادة وتحقيق العدالة الاجتماعية، وما أحرانا ـ نحن المسلمين ـ أن نتمسّك بديننا الإسلامي وأن ندعو إلى تحكيمه فيما يدعو إليه من قيم إنسانية عالية وعادلة، توفّر للإنسان حالاً من العيش بعزّة وكرامة، ينال فيه الجميع حقوقه دون نقيصة أو ظلم أو تسلّط إنسان على أخيه الإنسان، بدلاً من الدعوة إلى أنظمة لم تحقّق إلى شعوبها إلى يومنا الحاضر ما تطمح إليه من استقرار أو عدالة اجتماعيين.

■ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ■

القسم الثاني

أسئلة المحاضرة

- الرسالة الإسلامية والمحافظة على الفطرة الإنسانية
- إقامة المناسبات الدينية
- طبيعة العصمة بين التكوين والتشريع
- التحسُّس في استعمال بعض التعبيرات
- الفرق بين المنهج التجريبي والقانون المدني
- الأحكام الصادرة في عصر التشريع
- موقف الأئمة عليهم السلام من الثورات

الرسالة الإسلامية والمحافظة على الفطرة الإنسانية

■ **هل من الممكن القول بأن بعثة الرسول ﷺ هي للمحافظة على الفطرة الإنسانية؟ وما هي خطوات الحفاظ على الفطرة في سلوكنا اليومي المنطلق من التعليمات الدينية؟**

□ جميع الأديان جاءت على الفطرة، ونعني بالفطرة هنا: طبيعة الإنسان. وهو ما يعني أن جميع الأحكام التي جاءت بها الأديان الإلهية تتلاءم وطبيعة الإنسان، فإذا طبقها تعطيه السعادة. يقول تعالى في محكم كتابه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾[1]، فالآية تشير إلى أن مطلق الدين ـ ولم تحصره في الإسلام ـ جاء موافقًا لفطرة الإنسان وطبيعته السليمة.

وجوابًا للشقّ الثاني من السؤال، فإن الطريق إلى ذلك هو أن يلتزم الإنسان الإسلام في جميع سلوكياته اليومية، وألا يكتفي بالشؤون العبادية فقط، فالإسلام لا ينحصر في أداء الطقوس العبادية الفردية، إذ

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

على المسلم أن يعيش همّه الخاص، وبجانب ذلك الهمّ العامّ لمجتمعه ومحيطه، فيعيش الإنسانية مع الآخرين مستشعرًا معاناتهم كما يستشعر معاناته وحاجاته الفردية أيضًا.

إقامة المناسبات الدينية

■ **ما هي الفائدة العملية من إحياء ذكرى المبعث الشريف في وقتنا الحاضر؟**

□ إقامة هذه الذكريات والمناسبات الشريفة هي لأجل إحياء أمر الدين في مجتمعاتنا، من خلال الإفادة من الحدَث الماضي في الواقع المعاصر، إذ نريد للمسلم أن يربط ماضيه بحاضره، فإذا ما وعى وفهم المسلم اليوم حادثة المبعث الشريف الواقعة في الزمن الماضي المؤسِّس لما يلتزمه اليوم من عقيدة وشريعة، فإن لذلك أثره النفسي والسلوكي عليه. فإذا ما وعى أهمية وغاية بعثة الأنبياء عليهم السلام، وأن الله حينما بعث نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنما من أجل تكوين شخصية المسلم أفرادًا وأمّة، لتكون الأمة المسلمة هي الأمة الشاهدة على بقية الأمم، فإن لذلك أثره ودافعيته في نفس المسلم ليستحثّ ذاته ليكون مجتمعه في مقدّمة المجتمعات.

إن إدراك هذه المسألة ووعيها لدى شريحة واسعة إذا تأتّى من إقامة مثل هذه المناسبات، فقد تحقّق الكثير من بَعْثِ الروح الإسلامية في نفوس المسلمين في هذا الجيل والأجيال القادمة.

طبيعة العصمة بين التكوين والتشريع

■ **أشرتَ ـ خلال المحاضرة ـ إلى أن الأئمة**

عليهم السلام فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا وعملوا وفق هذا الفهم الصحيح والواعي، وكانوا معصومين لتطبيقهم الواعي والصحيح للإسلام، فهل كانت عصمتهم عليهم السلام ـ بهذا المعنى ـ اختيارية أم غير ذلك؟ أرجو توضيح هذه النقطة.

□ لعلّ السائل يشير إلى مسألة خلافية في علم الكلام الإمامي، وهي بخصوص تحديد مفهوم العصمة لدى أنبياء الله وأوصيائهم: هل هي عصمة تكوينية، بمعنى أن الله عندما خلق هؤلاء المعصومين كوّنهم وخلقهم معصومين، أو أنها عصمة تشريعية، بمعنى أنهم التزموا ما أنزله الله من تشريع التزامًا تامًّا دون أي درجة من المخالفة، فكانوا معصومين تشريعيًّا؟

ولذلك فإن معنى العصمة وعدم صدور أي مخالفة شرعية بناءً على الرأي الأول في العصمة إنما هو عدم صدور لمانع تكويني في شخصية المعصوم، فيما هو التزام تشريعي ألزم المعصوم نفسه ألاَّ يحيد معه عن الشريعة، بناءً على الرأي الثاني.

ولأن لكلٍّ دليله الروائي والقرآني والكلامي، فتظلّ المسألة موضع خلاف بين المتكلّمين.

التحسُّس في استعمال بعض التعبيرات

■ من التعبيرات الشائعة في المجتمعات الموالية لأهل البيت عليهم السلام أنهم يقولون: «يا علي»، بدلاً من القول: «يا الله»، فعندما ينوي أحدهم القيام بعملٍ من الأعمال، دائمًا ما يبدأ عمله بعبارة: «يا علي»، فما تعليقكم على هذه الظاهرة؟

☐ هذه من المسائل الخلافية بين المسلمين، ويتقاسمها اتجاهان، أحدهما يعدُّها شركًا، واستعانةً بغير الله فيما هو من صفات الله وموضع استعانة به سبحانه دون خلقه. فيما يجوّزها اتجاه آخر، ولا يرى فيها أيّ نوعٍ من الشرك، إذ يُدرك المسلمون أن قول المسلم: «يا علي»، أو: «يا محمدٍ»، لا يريد بها الاستعانة المستقلّة عن الله سبحانه أو المساوية له، وما دام الأمر كذلك، فلا موضع للتهمة بالشرك.

وانطلاقًا من هذه المسألة أودّ التنبيه على أمرٍ مهمّ، وهو ما أسميه: «عقدة الغير». ذلك أن هناك العديد من العلماء والمفكرين والباحثين عندما يتتبّعون ما يلصقه الآخرون بالإسلام من تُهَم قد يكون بعضها صحيحًا، ولكن يعدّها الآخرون تهمة؛ لعدم إدراكهم لبعض الخصوصيات الإسلامية التي تغيب عنهم أو لا يدركونها لعدم وجودهم ضمن البيئة الإسلامية، فإن ذلك قد يستدعي البعض منهم الدعوة إلى التخلّي عن ممارستها أو الدعوة إلى عدم التصريح بها إرضاءً للطرف الآخر، فيما لا يستدعي الأمر ذلك، وبخاصّة إذا كانت ممّا يتوافق والمبادئ الإسلامية ولا يتعارض معها. وهذه الدعوة إن صدرت من بعضهم، فهي إنما ناتجة عمّا أسميه بعقدة الغير، وليس عن رؤية إسلامية أصيلة وواعية.

وبخصوص ما ورد في السؤال، فأحب أن أمهد بمثال يقرّب الفكرة: إذ لو احتاج أحدنا إلى توصية معيّنة من أحد وجهاء البلدة، فاختار أن يذهب إلى العمدة باعتباره أحد أبرز الوجهاء فيها، وعند وصوله إلى مجلسه، طلب منه هذه التوصية التي يعدّها العمدة من الأمور البسيطة التي لا يحتاج بنفسه أن يقوم بها، وإنما يوكلها إلى أحد معاونيه، وعند ذلك يتوجّه صاحب الطلب إلى ذلكم المعاون ويطلبها منه، فقضيت الحاجة بهذه الطريقة.

إن هذه صورة لتعاملات اجتماعية كثيرة في حياتنا اليومية، ولا وجه لأي غرابة فيها، ولا استنكار. وممارسة يمكن تطبيقها على ما يثار حول استعمال الشيعة لتعبير: «يا علي» في تعاملهم اليومي. ذلك أن ما يقصدونه هو الاستعانة بالله سبحانه وتعالى، ولكن ـ بسبب اعتقادهم في أئمة أهل البيت عليهم السلام بأن لهم مكانة خاصّة عند الله سبحانه ـ يتشفّعون بهم إلى الله، ويطلبون تلك المعونة بواسطتهم، وهو معنًى واضح ولا يحتاج إلى تكلّف وتأويل ومزيد بيان، وعندما يقومون بهذه الممارسة إنما ينطلقون في ممارستها من العرف الاجتماعي البسيط الذي يتعامل به الإنسان مع أخيه الإنسان الذي قد يعلوه في المستوى الاجتماعي. ولأن أهل البيت عليهم السلام ـ الذين نتعبّد بدين الإسلام عن طريقهم وبهداهم ـ لم يصدر عنهم أي منعٍ لهذه الممارسة، فهي ممضاة من قبلهم. وما دام الأمر كذلك، فلا مشاحةً من التلفّظ بها والتعبير بهذه العبارة، ويستطيع كل منّا أن يقول في الاستعانة بالله دون واسطة: «يا الله»، كما يستطيع القول: «يا علي» بوساطة شفعائه عليهم السلام، دون أي تحسّس في الاستعمال.

الفرق بين المنهج التجريبي والقانون المدني

■ أشرتَ ـ خلال المحاضرة ـ إلى المنهج التجريبي، وأنه منهج قائم على التجربة والملاحظة، وأن ما يعطيه من نتائج إنما هو قائم على التجريب والاختبار، وهو ما قد يؤدّي إلى تبدّل بعض الآراء والنظريات، وذلك عندما تثبت التجربة والملاحظة خطأ نظريةٍ مّا أو معتقد معيّن، وما لديّ من تساؤل هو: أي ضرر من هذا المنهج؟ فهل يعاب على هذا

المنهج تبدّل الآراء فيه والنظريات إذا كان الرأي في ذلك مستندًا إلى واقع أثبتت التجربة خطأ المنهج السابق أو صحته؟

□ ربما وقع هناك بعض الاشتباه لدى السائل، إذ لم يكن الحديث أثناء المحاضرة عن المنهج التجريبي كمنهج في البحث العلمي، وإنما كان الحديث عن القوانين والتشريعات الوضعية، وهو حديث يختلف عن المنهج الذي تعتمده تلك القوانين أساسًا في التشريع والتقنين لديها. ذلك أن الطريقة التي تتّبع في وضع القانون والتشريع تسمّى بالمنهج، فيما القانون الذي يُعتمد من قبل السلطات الحاكمة في أي بلد يسمّى تشريعًا. والحديث كان بخصوص ما لدى تلكم البلدان من تشريعات أقرتها الحكومات التي تبنّت التشريعات والقوانين الوضعية أو المدنية.

والتغيير قد يمسّ القوانين والتشريعات المدنية، وهو ما يقابل النسخ في التشريعات الإلهية. وكان الحديث بخصوص الموازنة والمقارنة بين التغيير في التشريعات الإلهية (النسخ) والتغيير في التشريعات المدنية، حيث يكون مصدر الأول هو الوحي الإلهي الذي نثق ـ نحن المسلمين ـ بأنه إنما صدر لتغيُّر طرأ على المجتمع البشري استوجب ذلكم التغيير في الحكم ونسخه والإتيان بحكمٍ جديد، فيما مصدر الثاني التجربة الإنسانية التي لا تكون بالضرورة صائبة، أو أن تنطلق التشريعات فيها بناءً على نتائج واستنتاجات صحيحة وواقعية، وإنما هي في بعض صورها إرضاءً لطبقة على حساب بقية الطبقات، وفي بعض صورها نتيجة لتوجّه اجتماعي معيّن ليس بالضرورة أن يكون ذلكم التوجّه منسجمًا والروح والفطرة الإنسانيتين.

الأحكام الصادرة في عصر التشريع

■ **ما رأيك في الحديث: «كنتُ قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»؟ هل هو صحيح وصادر عن الرسول ﷺ؟**

□ قبل الإجابة عن السؤال الوارد، أمهّد لذلك ببيان أمرٍ مهمٍّ، وذلك بخصوص تنوّع الأوامر والأحكام الصادرة عن نبينا محمد ﷺ إلى نوعين من الأحكام، وهي إما أحكام تشريعية، صادرة عنه ﷺ باعتباره مبلغًا وحاملاً للشريعة الإسلامية، وهي الأحكام الثابتة وغير القابلة للتبدّل والتغيُّر. وأحكام صادرة عن النبي ﷺ باعتباره حاكمًا للدولة الإسلامية ورئيسها الأعلى، وهي أحكام متغيّرة، تصدر من قبل صاحب المنصب لما له من صلاحية يراعي في استعماله لهذه الصلاحية المصلحة أو المفسدة في إصدار مثل هذه الأحكام، وأن تتوافق والروح العامّة في التشريع.

وهي حالٌ نجد مثيلاً لها في نماذج الحكم والقوانين المدنية في التجارب الحديثة للإدارة والحكم، ذلك أن الأحكام الصادرة عن رئيس الدولة تنفيذًا لقوانين ودستور البلد تُعدّ تنفيذًا أمينًا للدستور، وفي مقابلها هناك أحكام تصدر عن رئيس الدولة لما له من صلاحية دستورية، وهي غالبًا ما ترتبط بحالات استثنائية، تحتاج لأن يجري فيها الرئيس صلاحياته فيما لا يتعارض وروح القانون العام للبلد، بحيث ينتهي الحكم بهذا القانون بمجرّد زوال تلكم الظروف الاستثنائية، ومن ثَمَّ الرجوع إلى القانون والحكم الأصلي والأساسي.

وفي هذا المجال، يوجّه بعض علماء أهل السنة ما قام به الخليفة

عمر بن الخطّاب في نهيه عن زواج المتعة في هذا السياق، إذ يشيرون إلى أن ما قام به الخليفة عمر من تحريم للمتعة إنما لاعتبارات مصلحية، وجد فيها أن الأَوْلى إلغاء هذا الحكم وتحريم هذا النوع من الزواج لما رآه من مصلحة إسلامية عليا، مستعملاً في ذلك ما له من صلاحيات أعطيت لمنصبه في رئاسة الدولة والقيادة العامة للمجتمع المسلم.

وفي الإجابة عن السؤال، أشير إلى أن الحديث: «كنتُ قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكركم الموت»[1] هو من الأحاديث الواردة في صحاح أهل السنة، وقد حسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه[2]، ولكنه غير صحيح بموازين الحديث لدينا.

ولو كان هذا الحديث صحيحًا، فإن ما يمكن فهمه من دلالة الحديث أن زيارة القبور أمرٌ مستحبٌّ في ذاتها، وهو ما يُفهم من نهاية الحديث: «فإنها تذكركم الموت»، ولكنّ النبي ﷺ ـ على فرض صحّة الحديث ـ قد نهى عنها وحرّمها تحريمًا مؤقّتًا لظرفٍ محدّد مستعملاً في ذلك ما له من صلاحيات، باعتباره الحاكم الإسلامي الشرعي، وبمجرّد زوال أسباب التحريم، رجع الحكم الأساسي لزيارة القبور، وهو الاستحباب.

وفي هذه النقطة، إذا كان السائل يسأل عن النسخ، فلا نسخَ في الحديث، وإنما كان التحريم نابعًا من ظروف استثنائية، وفي الحديث

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار المعرفة ـ بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ج١/ ٧٠٩.

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ج٢/ ٣٥٩.

إشارة إلى زوال تلكم الظروف الاستثنائية، وهذا في حال ثبت الحديث عن النبي ﷺ.

وإن كان السائل يسأل عن الحكم الشرعي لزيارة القبور، فنحن نتعبّد في هذه الأحكام بما وردنا عن طريق أهل البيت عليهم السلام، وقد ثبت عنهم عليهم السلام زيارتهم للقبور، بل وحثّهم أتباعهم على ذلك، وبخاصّة ما كان منها يربطنا بأهداف وقيم الدين النبيلة، كما هي الحال مع زيارة قبورهم عليهم السلام ومشاهدهم الشريفة.

موقف الأئمة عليهم السلام من الثورات

■ **ما هو موقف الأئمة عليهم السلام بشكل عام من الثورات التي وقعت في عهودهم عليهم السلام؟**

□ كانت هناك ثورات من قبل أبناء الحسن عليه السلام، وثورات من قبل أبناء الإمام الحسين عليه السلام، مثل ثورة الإمام زيد بن علي بن الحسين، وثورة يحيى بن زيد. فالثورات التي أمضيت وأقرّت من قبل الأئمة عليهم السلام فهي ثورات صحيحة، مثل ثورة الإمام زيد عليه السلام، حيث أمضاها الإمام الصادق عليه السلام، أما الثورات التي لم تُقَرّ من قبل الأئمة، فهي غير معلوم صحّتها.

■ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ■

ثبت المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ)، تحقيق: السيد حسن الأمين (ت ١٤٢٣هـ)، دار التعارف ـ بيروت، ط٥، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
٣. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة ـ بيروت، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٤. تاريخ التشريع الإسلامي، الدكتور عبد الهادي الفضلي، مركز الغدير ـ بيروت، ط٢، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.
٥. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، بدون تاريخ.
٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ط١، ١٩٨٤م.
٧. تفسير الطبري، تحقيق: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.
٨. تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس، دار الكتب العلمية ـ بيروت،

ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٩. خلاصة علم الكلام، الدكتور عبد الهادي الفضلي، مركز الغدير ـ بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٠. دروس في فقه الإمامية، الدكتور عبد الهادي الفضلي، مؤسسة أم القرى ـ قم، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١١. رجال النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ، تحقيق محمد جواد النائيني، بيروت: دار الأضواء، ط١ سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٢. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣. قراءة في كتاب التوحيد، الدكتور عبد الهادي الفضلي، منشورات بيت الحكمة الثقافي ـ القطيف، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١٤. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار المعرفة ـ بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

١٥. معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٦. من وحي القرآن، السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك ـ بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٧. الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة التابعة لرئاسة الجمهورية السورية ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.

١٨. موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، الدكتور سميح دغيم، مكتبة لبنان ـ بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

١٩. النكت الاعتقادية، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: رضا المختاري، دار المفيد ـ بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٢٠. نهج البلاغة، نهج البلاغة، خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جمع الشريف الرضي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ)، دار المعرفة ـ بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
٢١. ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، النسخة العربية.

المحتويات

هذا الكتاب

يعدُّ القرآن الكريم المصدر الأساس في دراسة ظاهرة النبوة، وذلك لما نعتقده فيه نحن المسلمين من وثاقة تاريخية عُليا لا يعطيها المسلمون لأيّ نصٍّ تاريخي آخر، وكذلك لاشتماله على القصص النبوية التي يمكن للدارس أن يخرج منها بمبادئ وأسس تفصيلية حول الرسالات الإلهية، يمكنها أن تمثّل منطلقات جديدة لإعادة النظر حول بعض القضايا الخاصّة بأصل النبوة في الدرس الكلامي.

وهي منهجية اتبعها العلاّمة الفضلي في دراسته هذه، حيث استهدى في حديثه عن البعثة النبوية بالهدي القرآني الكريم، جامعًا في ذلك بين معطيات الدرس الكلامي ومناهج المفسرين في تناولهم لظاهرة النبوة وطبيعة حركتها التاريخيّة.

منشورات بيت الحكمة الثقافي